هيسبريس تمودا، العدد XLIX ، (2014) ص. 7-10

تأبيـن

محمد جسوس
(2014-1938)

في بحر السنة الجارية، رحل عنا الأستاذ محمد جسوس إلى جوار ربه تاركا وراءه أجيالا من الباحثين ممن ساهم بتفان في تكوينهم، ورصيدا هائلا من الاجتهادات والممارسات النظرية والمنهجية والبيداغوجية. لذا شكل فقدانه خسارة لا تعوض، سواء بالنسبة لزملائه أو طلابه، أو بالنسبة لمحبيه وأصدقائه ممن رافقوه في درب النضال السياسي. لقد ترك بصمات واضحة على البحث والتدريس في ميدان علم الاجتماع، بحيث يتعذر التأريخ لهذا العلم في المغرب دونما الرجوع إلى المفاهيم التي عمل بجد على تأصيلها، والأطر النظرية التي ساهم بفعالية كبيرة في تطويرها ونشرها، والمناهج التي وظفها في أبحاثه وناقشها مع طلابه.

ولعل من أهم القضايا التي استرعت الفضول العلمي لدى محمد جسوس التساؤل حول العوامل المفسرة لتوقف المغرب في مسيرته التنموية؟ ومحاولة الجواب عن هذا التساؤل أدت به إلى الرجوع للماضي، أي للتاريخ. إلا أنه عند قراءة بعض النصوص التاريخية، لاحظ ، عند مطلع الستينيات، أنه يصعب على الباحث إيجاد خط رابط. بل ما يسجله هو تركيز بعض المؤرخين على دراسة الجزئيات والاهتمام أساسا بالتاريخ الحدثي، وذلك في تعارض تام مع المنهج الخلدوني؛ هو الاقتصار على مقاربة التاريخ المغربي عبر "بنيته الفوقية" في تجاهل بعيد المدى "لبنيته التحتية"، أي للقبائل ولقواه الحية والعميقة.

إلى جانب ذلك، دعا محمد جسوس إلى اعتماد منهجية تاريخية قائمة على أساس الفكر النقدي وتحليل وتفسير الأحداث الدالة والحاسمة، وربط الأحداث

بالمجتمع والبحث عن مبادئ التماسك. ورفض توظيف مفهوم "العتاقة" في دراسته للبنيات الاجتماعية التقليدية، مبرزا ما يعتمل في داخلها من أحداث وسيرورات، ومتبنيا عوض ذلك مفهوم "النسبية الثقافية" الذي تتعذر بمقتضاه المفاضلة بين الأشكال الثقافية، و"تعدد أنماط التقليد" التي عرفها المجتمع المغربي. كما أبرز انتماءها لحضارة أوسع من ميزاتها الأساسية توفرها على تاريخ مكتوب. وقصر استعمال المنهج الانقسامي على وصف ما يتخلل البنيات القبلية من ديناميات التعارض والالتحام. لقد عبر في غير ما مناسبة عن رغبته في نشوء تعاون شامل بين السوسيولوجيين والمؤرخين.

وضدا على التوجهات التي تلغي من حسابها الاعتماد على بعض المكتسبات المعرفية التي أفرزتها العلوم الاجتماعية في عهد الحماية، عمل محمد جسوس، طيلة سنوات ورفقة العديد من طلابه، على إنجاز حصيلة نقدية للأبحاث السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي تمت في تلك الحقبة حول مواضيع من قبيل الزوايا، والقبائل، والنظام المخزني، واجماعة، والقيادات الجهوية، والصلحاء، والأنظمة الزراعية والعقارية، وسيرورات التحديث، إلخ.

إلا أنه بالرغم مما تميزت به العديد من هذه الأبحاث من علات نظرية ومنهجية، فقد كان محمد جسوس مقتنعا بأهمية المناهج المعتمدة في بعضها، بل حتى بمصداقية بعض مضامينها التي سمحت للإدارة الاستعمارية، في نظره، بتحقيق نجاح نسبي في تهدئة المجتمع المغربي. وأبدى إعجابه بالجهد العلمي المميز لبعض "الأطروحات الكبرى" من قبيل تلك التي أنجزها جاك بيرك وروبير مونطاني حول قبائل الأطلس الكبير. غير أنه دعا إلى تحليل المجتمع المغربي، ليس اعتمادا على تقارير الرحالة والمستكشفين ورجال البعثات الدينية الذين يغلب أن يكون اتصالهم بالمجتمع سطحيا وسريعا، وإنما عبر التركيز على أبحاث ميدانية عميقة ودقيقة. لقد شدد على ضرورة مناقشة المسلمات الأساسية للسوسيولوجيا في عهد الحماية علميا، وليس إيديولوجيا أو سياسيا. وكان من نتائج هذا الاختيار إنجاز الطلاب للعديد من أبحاث الإجازة والسلك العالي والدكتوراة حول قضايا وإشكاليات تتصل بإنتاجات هذه المرحلة الهامة من تطور البحث الاجتماعي في المجتمع المغربي.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يتغافل عما تميزت به العديد من هذه الأبحاث من مشاكل نظرية ومنهجية، حيث أبدى استغرابه من اقتصارها على مقاربة بعض الظواهر والقضايا دون غيرها:

- ركزت على دراسة المحلي ضدا على التوجهات الوطنية والحضارية للمغرب؛
- اهتمت على وجه الخصوص بإبراز الاختلاف بين العرب والأمازيغ مستغلة في ذلك النصوص الخلدونية ذاتها؛
- سعت على وجه الخصوص إلى دراسة كل ما ليس له علاقة بالإسلام والثقافة العربية؛
- عمدت إلى التركيز على كل ما يفرق ولا يوحد.
- وفي دراسته للقبيلة، نتبين ما نجم عن مقاربته لها من قطائع:
- قطيعة مع المقاربات الأمبريقية، وذلك بالرجوع إلى رصد التحولات التاريخية التي أدت إلى إعادة بناء البنية القبلية عند مطلع القرن العشرين؛
- قطيعة مع إطار المونوغرافية، وذلك بإدراج القبيلة ضمن المجال الوطني والمتوسطي والإسلامي والشمال-إفريقي؛
- قطيعة على مستوى الموضوع، حيث لا يقتصر على تحليل الأعراف والطقوس وأشكال التدين، بل يركز بصفة خاصة على تحليل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاملة للتوجهات المستقبلية.

لقد كان التفكير المنهجي يتخلل كتابات وفكر محمد جسوس بإصرار وانتظام، حيث كان يؤكد باستمرار على استحالة التحقق من علمية بحث ما دون قيام الباحث بتوضيح خطواته المنهجية ومختلف الآليات التي اعتمدها في تطبيقه وبلوغه لنتائج معينة. لقد سعى منذ رسالة الماستر التي أنجزها في جامعة لافال بكندا سنة 1960 حول الحضارة القبلية في المغرب إلى الجمع بين التحليل الوظيفي والتحليل التاريخي، حيث كان يتفق مع كل من فرانز بواس وإيفانس بريتشارد في ربط فهم الظواهر المعقدة، ليس فقط برصد مميزاتها، ولكن أيضا بمعرفة الكيفية التي تم بها إنتاجها. وكان أيضا موقنا باستحالة تفسير الظواهر

الاجتماعية اعتمادا على سببية أحادية، وبصعوبة التعمق في فهمها اعتمادا فقط على المقاربة الماكروسوسيولوجية. حيث اعتبر أنه للبرهنة على اندماج البنية الاجتماعية لا يكفي التركيب بين مكوناتها، بل يتعين، فوق ذلك، أن تتجسد وتتوحد مكونات هذه البنية في التجربة الفردية. لقد سعى من وراء ذلك إلى دراسة الكائن الاجتماعي الشمولي من خلال المعيش الفردي.

ومع أن محمد جسوس وظف في بعض كتاباته المنهج الدركايمي، إلا أنه لم يقتصر بتاتا على تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، بل تعدى ذلك الإطار سعيا إلى الاستلهام من المناهج المعتمدة لدى بعض الباحثين الأوربيين والأمريكيين من قبيل ماكس فيبر ومارسل موس وروبير مرطن ورايت ميلز ورادكليف براون وكلود ليفي ستروس وبيير بورديو وآخرون. كما انفتح بشكل واسع ومثير للغاية على سوسيولوجيا التنمية في أمريكا اللاتينية وامتداداتها في أوربا والعالم العربي، حيث ناقشها في درسه الجامعي وبين لطلابه إسهاماتها وحدودها.

وكان كل من يقرأ أو يستمع لمحمد جسوس ينبهر بسعة الاطلاع التي كان يتميز بها بخصوص التراث السوسيولوجي والأنثروبولوجي العالمي، بل بمجمل الكتابات الرائجة في العلوم الاجتماعية بصفة عامة. لقد نجح، فوق ذلك، في التوفيق بين التقاليد السوسيولوجية في كل من أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية، وساهم بفعالية ودقة متناهية في التعريف بمفاهيمها وطروحاتها النظرية. كما كان ذا اطلاع واسع في ميادين التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي والإبستمولوجيا والدراسات التنموية بوجه عام.

إضافة إلى كل ذلك، عمل محمد جسوس طيلة مساره الجامعي، على خلق وترسيخ تقاليد وأخلاقيات جامعية من شأن التشبث بها حاليا ومستقبلا أن يحقق ارتقاء مؤسساتنا الجامعية لما نريده لها من نجاح وتوفيق في أداء رسالتها. كما طور أساليب بيداغوجية جديدة، من شأن إحيائها والاستلهام منها أن يقود تدريس العلوم الاجتماعية ببلدنا إلى بر النجاة. إننا نجدد شكرنا لأستاذنا محمد جسوس على كل ما قدمه لنا من ثمرات علمه وتجربته، ونؤكد له بأنه سيظل حيا في ذاكرتنا وحاضرا في وجداننا وعقولنا.

المختار الهراس